الفصل الرابع

موليير

١٦٢٢ — ٧٣

١ ـ المسرح الفرنسى

بقى الآن أن تخضع المسرحية والشعر الفرنسيان أوربا لسلطانهما .

ولقد شاء هوى التاريخ أن ينصرف الأدب الفرنسى فى هذا العصر إلى المسرح ، وأن يشجع الكردينال ريشليو المسرحية التى ظلت الكنيسة تحرمها طويلا ، وأن يستورد الكردينال مازارن الملهاة الإيطالية إلى فرنسا ، وأن يرث لويس الرابع عشر حب المسرح من هذين الكاهنين اللذين مهدا لسلطته أو حفظاها .

كانت المسرحية الحديثة قد بلغت الشكل الأدبى فى إيطاليا برعاية بابوات النهضة الرفيعى الثقافة ، وكان ليو العاشر يحضر التمثيليات دون أن يطالب بأن تكون صالحة للعذارى . ولكن الاصلاح البروتستنتى وبجمع ترنت المترتب عليه وضعا حداً لهذا التساهل الكنسى . وقال بنديكت الرابع عشر إن المسرحية لم يستمر السماح بها فى إيطاليا إلا درءا لشرور أفدح ، وفى أسبانيا إلا لأنها تخدم الكنيسة . وأما فى فرنسا فإن رجال الأكليروس ، الذين صدمتهم الحرية الجنسية التى تمتع بها المسرح الهزلى ، ندد وا بالمسرح عدواً للآداب العامة . وقضت سلسلة طويلة من الأساقفة واللاهوتيين بأن الممثلين محرومون بحكم طبيعة الحالة ، أى بحكم مهنتهم ذاتها ، وأنكر عليهم قساوسة باريس ، الذين عبر عنهم صوت بوسويه الآمر ، حق تناول الأسرار أو الدفن فى أرض مكرسة إلا إذا تابوا وأقلعوا عن مهنتهم . وإذ حرموا من مراسم

سر الزواج يقوم بها كاهن ، فقد كان عليهم أن يقنعوا بزيجات عرفية بالغة القلق وعدم الاستقرار ، كذلك وسم القانون الفرنسى الممثلين وأقصاهم عن كل وظيفة شريفة ، وحظر على القضاة حضور الحفلات التمثيلية .

ومن ملامح التاريخ الحديث البارزة أن المسرح استطاع التغلب على هذه المقاومة . ذلك أن المطلب الشعبي للتظاهر والادعاء تخففا وثأراً من الواقع أنجب العدد العديد من الهزليات والملاهى ، وكان للآلام التى فرضها على الرجال الاقتصار على زوجة واحدة الفضل فى إقبال جمهور سخى العطاء على مسرحيات الحب الحلال أو الحرام . ويلوح أن ريشليو وافق ليو العاشر على أن أيسر سبيل للهيمنة على المسرح هو رعاية أفضل المسرحيات لا رفضها كلها ، وبهذه الطريقة قد يتيح القدوة للذوق العام ، والعيش للفرق المسرحية المهذبة . وليلاحظ القارىء تقرير فولتير الآتى : « منذ أدخل الكردينال ريشليو الأداء المنتظم للتمثليات فى البلاط ، الأمر الذى جعل باريس الآن منافسة لأثينا ، لم يقتصر الأمر على تخصيص مقعد يجلس عليه رجال الأكاديمية التى تضم نفرا من القساوسة ، بل خصص مقعد آخر للأساقفة(١) » .

وفى ١٦٤١ ، ربما بناء على طلب الكردينال ، بسط لويس الثالث عشر رعايته على فريق من الممثلين عرفوا بعدها بالفرقة الملكية أو الكوميديين الملكيين ، وأجرى عليهم معاشا قدره ألف ومائتا جنيه فى العام ، وأصدر مرسوما يعترف بالمسرح لونا مباحا من ألوان الترفيه ، وأعرب عن رغبة الملك فى ألا تعتبر مهنة الممثل بعدها ضارة بمركزه فى المجتمع(٢) . وأقامت الفرقة مسرحها فى « الأوتيل دبورجون » ، وحظيت برعاية لويس الرابع عشر الرسمية ، واحتفظت طوال حكمه بتفوقها فى أخراج المآسى .

ورغبة فى رفع مستوى الملهاة الفرنسية ، دعا مازاران نفرا من الممثلين الإيطاليين إلى باريس ، ومنهم تيبيريو فيوريللى ، الذى أصبح أثيراً لدى باريس والبلاط بأدائه دور المهرج الفشار « سكاراموتشا » . ولعله هو

وزملاؤه شاركوا فى بعث حمى المسرح فى أوصال جان بوكلان الرابع ، وفى تعليمه فنون المسرح الهزلى(٣) . فلما عاد « سكاراموش » إلى إيطاليا (١٦٥٩) أصبح جان بوكلان ، الذى عرفه المسرح والعالم باسم موليير ، الممثل الهزلى الأول للملك ، وبعدها بقليل — فى رأى بوالو المولع به — أكبر كتاب العصر .

٢ ـ تلمذته

على المبنى رقم ٩٦ بشارع سانت — أونوريه كتابة بحروف من ذهب، هذا نصها : —

شيد هذا البيت فوق موضع البيت الذى ولد فيه موليير

فى ١٥ يناير ، ١٦٢٢

وكان البيت بيت جان باتست بوكلان الثالث ـ منجد الأثاث والمزخرف. وكانت زوجته مارى كريسيه قد أتته بمهر قدره ٢ر٢٠٠ جنيه ، وأنجبت له ستة أطفال ، ثم ماتت بعد زواجهم بعشر سنوات ، ولم يكن طفلها الأول ـ جان باتست بوكلان الرابع — يتذكرها فى وضوح ، ولم يذكرها قط فى تمثيلياته وتزوج الأب ثانية (١٦٣٣) ولكن زوجة الأب ماتت فى ١٦٣٧، فكان على الأب أن يحمل عبء عبقرية ولده ، ويوجه تعليمه ، ويفكر فى تشكيل مجرى حياته . وفى ١٦٣١ أصبح جان بوكلان الثالث « المشرف على تنجيد أثاث حجرة الملك » ومنح امتياز إعداد السرير الملكى والسكنى فى البيت الملكى ، لقاء راتب سنوى قدره ثلثمائة جنيه، وهو مبلغ متواضع، ولكنه لم يلزم الحضور فى أى عام أكثر من ثلاثة أشهر . وكان الأب قد اشترى الوظيفة من أخيه ، وأراد أن يورثها ابنه . وفى ١٦٣٧ أقر لويس

الرابع عشر حق جان بوكلان الرابع فى وراثة الوظيفة ؛ ولو أن تطلعات الأديب تحققت لعرف التاريخ موليير — إن عرفه إطلاقاً — بأنه الرجل الذى كان يعد سرير الملك . على أن جداً للصبي أولع بالمسرح ، فكان يصطحبه إلى حفلات التمثيل بين الحين والحين .

وأعداداً لجان الرابع لتهيئة سرير الملك ، أرسل إلى كلية لليسوعيين فى كليرمون ، وكانت الأم الحانية على المهرطقين . وهناك تعلم الكثير من اللاتينية ، وقرأ تيرنس وأفاد منه ، ولا شك أنه اهتم ، وربما شارك ، فى المسرحيات التى عرضها اليسوعيون أداة لتعليم تلاميذهم اللاتينية والأدب والكلام ويقول فولتير إن جان تلقى كذلك تعليما عن الفيلسوف جاسندى الذى كان قد عين معلما خاصا لزميل فى فصل جان . على أية حال تعلم جان الكثير عن أبيقور ، وترجم شطرا كبيراً من ملحمة لوكريتيوس الأبيقورية De rerum natura(وبعض سطور مسرحيته « مبغض البشر[٤] » . تكاد تكون ترجمة لفقرة فى لوكريتيوس[٥]) . والراجح أن جان فقد إيمانه قبل أن يختتم صباه.[٦]

وبعد أن قضى خمس سنين فى الكلية درس القانون ، ويبدو أنه مارسه حقبة قصيرة فى المحاكم . ثم اتخذ مهنة أبيه بضعة أشهر (١٦٤٢) . وفى ذلك العام التقى بمادلين بيجار ، وكانت وقتها سيدة مرحة فى الرابعة والعشرين . وقبل ذلك بخمس سنين كانت خليلة للكونت دمودين ، الذى اعترف فى سماحة بالطفل الذى ولدته له ، وأذن لابنه فى أن يقف عراباً له عند عماده . وفتنت مادلين جان — وكان قد بلغ العشرين — وسحرته بجمالها وطبعها البشوش اللطيف . وأغلب الظن أنها قبلته عشيقاً . وقد حمله عشقها للمسرح ، مع عوامل أخرى ، على اتخاذ قرار بأن يولى لتنجيد الأثاث ظهره ، وأن ينزل عن حقه فى أن يخلف أباه مشرفا على تنجيد حجرة الملك لقاء ٦٣٠ جنيها ، وأن يلقى بنفسه فى خضم التمثيل (١٦٤٣) . وذهب ليقيم فى بيت مادلين

بيجار(٧). ثم دخل معها ومع أخويها وآخرين فى تعاقد رسمى أنشأوا بمقتضاه « المسرح الشهير » (٣٠ يونية ١٦٤٣). ويعتبر الكوميدى فرانسيز ذلك العقد بداية لتاريخه الطويل الممتاز . واتخذ جان الآن اسماً مسرحياً جريا على عاده الممثلين ، فأصبح يسمى موليير .

واستأجرت الفرقة الجديدة ملعباً للتنس مسرحاً لها ، وقدمت مختلف التمثيليات ، ثم أفلست ؛ وفى ١٦٤٥ قبض على موليير ثلاث مرات بسبب الدين ودفع أبوه عنه ديونه وحصل على أمر بالإفراج عنه معللا نفسه بأن الفتى قد برىء من حمى المسرح . ولكن موليير أعاد تأليف « المسرح الشهير » وانطلق فى جولة بالأقاليم . ومنح الدوق ديبيرنون حاكم جيين الفرقة تأييده . وتنقلت الفرقة فى سلسلة مضنيه من النجاح والفشل بين ناربون ، وتولوز ، وألبى ، وكاركاسون ، ونانت ، وآجن ، وجرينوبل ، وليون ، ومونبلييه ، وبوردو ، وبيزييه ، وديجون ، وأفنيون ، وروان . وارتقى موليير حتى أصبح مديراً لها (١٦٥٠) ، ووفق بعشرات الحيل فى أن يحفظ للفرقة قدرتها على إيفاء ديونها ويكفل لها طعامها . وفى ١٦٥٣ أعار الأمير ديكونتى ، زميله المدرسى القديم ، اسمه للفرقة وقدم لها المعونة ، ربما لإعجاب سكرتيره بالممثلة الآنسة دوبارك . ولكن الأمير أصابته نوبة شلل دينى فى ١٦٥٥ ، فأخبر الفرقة بأن ضميره يمنعه من الاتصال بالمسرح ، ومالبث بعد ذلك أن ندد علانية بالمسرح ، وبموليير بصفة خاصة ، مفسداً للشباب وعدوا للفضيلة والمسيحية .

ووسط هذه التقلبات نهضت الفرقة شيئاً فشيئاً بكفايتها ودخلها وذخيرتها من المسرحيات . وتعلم موليير فن المسرح وحيله . فما وافى عام ١٦٥٥ حتى كان يكتب التمثيليات كما يمثلها . وفى ١٦٥٨ آنس فى نفسه من القوة ما يكفى لتحدى فرقتين احتلتا المسرح الباريسى ، فرقة ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، وفرقة خاصة تمثل فى مسرح ماريه . وحضر هو ومادلين بيجار

من روان إلى باريس ليمهدا الطريق لفرقتهما • وزار أباه ، وظفر بعفو عن ذنوبه ومهنته . ثم أقنع فيليب الأول دوق أورليان بأن يبسط حمايته على الفرقة وأن يحصل لها على إذن بإقامة حفلة تمثيلية بالبلاط .

وفى أكتوبر ١٦٥٨ مثلت « فرقة المسيو » هـذه أمام الملك فى قاعة الحرس باللوفر مأساة كورنى « نيكوميد » ، ومثل موليير الدور الرئيسى دون توفيق كبير ، لأنه كما يقول فولتير كان يعانى « من ضرب من الفواق لايلائم البتة الأدوار الجادة ، ولـكنه يعين على جعل تمثيله فى الملهاة أكثر إمتاعا »(٨) . وقد أنقذ الحفلة بأن أتبع المأساة بملهاة فقدت الآن معالمها ، ومثل بحيوية ومرح ، وحاجب مرفوع وفم مثرثر جعل الجمهور يتساءل لم يمثل المأساة إطلاقا • وكان فى الملك من الصبى ماجعله يستمتع بهذا الهزل ، ومن الرجولة ماجعله يقدر شجاعة موليير • فأصدر تعليماته بأن تشارك فرقة المسيو فرقة سكاراموش الإيطالية فى قاعة البتى بوربون ، وهناك أيضا أخفق الممثلون الوافدون حين حاولوا تمثيل المآسى التى قصروا فى أدائها دون ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، ووفقوا فى التمثيليات الهزلية ، لاسيما التى ألفها موليير • ومع ذلك واصلوا إخراج المآسى • ذلك ان كبار الممثلات كن يشعرن بأنهن يتألقن أكثر فى الدراما الجادة ، ولم يكن • وليير نفسه راضيا قط بأن يكون كوميديا ، لأن صراعات الحياة وسخافاتها أورثته مسحة من الحزن ، وقد وجده أمرا فاجعا له أن يكون على الدوام مضحكا • يضاف إلى هذا أنه سئم هزليات المكائد الغرامية والشخصيات المبتذلة وكباش الفداء المألوفة ؛ وأكثرها أصداء لإيطاليا • وتلفت حوله فى باريس فرأى فيها أشياء لاتقل إضحاكا عن بوليشينيل وسكاراموش • وروى عنه قوله « لم يعد بى حاجة إلى اتخاذ باوتس وتيرانس أساتذة لفنى أو إلى السطو على مينائدر • فما على إلا أن أدرس هذه الدنيا »(٩) .

٣ - موليير ونساء المجتمع

مثال ذلك « الأوتيل د.امبوييه » حيث كان الرجال والنساء يجدون الآداب الرقيقة والحديث المعطر . فكتب موليير تمثيلية « المتحذلقات المضحكات » . وكان إخراجها (١٨ نوفمبر ١٦٥٩) فاتحة ملهاة العادات الفرنسية وبداية لحظ موليير وشهرته . وكانت الملهاة من القصر بحيث لم يستغرق تمثيلها أكثر من ساعة، وفيها من الحدة ماخلف لذعة طويلة الأيلام . استمع إلى ابنتي العم، مادلون وكاتوس، اللتين تلفهما سبعة أقنعة من التظرف، تحتجان على تلهف الكبار، الواقعيين ، المفلسين ، على تزويجهما .

جرجيبوس : أي عيب تريان فيهما ؟

مادلون : ياللهامن كياسة رائعة منهاحقاً! ماذا ، أنبدأ فوراً بالزواج! .. لوكان الناس جميعاً مثلك لقضى للتو على الرومانس ... إن الزواج ينبغي ألا يتم أبداً إلا بعد مغامرات أخرى . فعلى العاشق إن أراد قبولا أن يفهم كيف يعبر عن العواطف المهذبة ، وكيف يتأوه بالحديث الناعم ، الرقيق ،المشبوب، ويجب أن يكون حديثه مطابقا للقواعد . فعليه بادىء ذى بدء أن يرى فى الكنيسة أو فى الحديقة العامة أو فى حفل عام تلك التى يشغف بها حبا ، وإلا وجب تقديمه إليها التقديم المحتوم بواسطة قريب أو صديق ، ثم عليه أن ينصرف عنها مكتئبا متأملا . ثم يخفى عاطفته حينا عن موضع حبه ، ولكنه يزورها مرات ، لايعدم فيها طرح بعض الحديث عن مغازلة النساء على البساط تدريباً لعقول الجماعة كلها ... ثم يأتى اليوم الذى يبوح فيه بحبه ، وينبغى أن يتم هذا عادة فى ممشى حديقة بينما الجماعة على بعد منها . وهذا التصريح نقابله عادة بالاستياء ، الذى يبدو فى احمرار وجوهنا ، والذى يقصى العاشق عنا زمنا ، ثم يجد الوسيلة لمصالحتنا بعد حين ، ولتعويدنا أن نسمع حديث غرامه دون أن نتألم ، واستلال ذلك الاعتراف الذى يسبب لنا حرجا شديداً .

ثم تتلو ذلك للمغامرات : المزاحمون الذين يحبطون ميلا رسخ ، واضطهادات الآباء ، والغيرة المنبعثة من المظاهر الكاذبة ، والشكاوى ، واليأس ، والهروب مع الحبيب ، وما يسفر عنه من عواقب . هكذا ينبغى أن تجرى الأمور بأسلوب جميل ، وتلك هى القواعد التى لاغنى عنها للتودد المهذب الأنيق . أما الاندفاع رأسا إلى الرباط الزوجى ، وأما عدم مطارحة الغرام إلا بعقد الزواج ، والإمساك بالمغامرة الرومانسية من ذيلها — فمرة أخرى أقول لك ياأبى العزيز إنه ما من شىء أكثر آلية من تصرف كهذا ، ومجرد التفكير فيه يشعرنى بالغثيان .

كاتوس : أما أنا ياعماه فكل ما أستطيع أن أقوله هو إننى أرى الزواج شيئا مروعا جدا . فكيف أطيق فكرة الرقاد مع رجل عريان حقا(١٠) ؟

ويستعير خادما الخطيبين ملابس سيديهما ويتنكران كركيز وجنرال ، ويتوددان إلى السيدتين بكل ما يصاحب التودد من تظرف ومزاح . ويفاجئهما السيدان ، ويجردانهما من ملابسهما المزيفة ، ويتركان الشابتين أمام الحقيقة العارية تقريبا . وفى هذه الملهاة ، كما فى جميع ملاهى موليير الجنسية ، عبارات نابية وبعض المزاح الرخيص ، ولكن فيها هجوا لاذعا للحماقات الاجتماعية ، بلغ من حدته أن تأثيره أصبح حدثا فى تاريخ عادات المجتمع . وقد نسبت رواية غير مؤكدة لامرأة من النظارة أنها وقفت وسط الجمهور وصاحت « تشجع ! تشجع ! هذه ملهاة حسنة ياموليير »(١١) وروى أن واحدا من رواد صالون مدام درامبوييه قال بعد خروجه من التمثيلية « بالأمس أعجبنا بكل السخافات التى نقدت نقدا رقيقا معقولا جداً ، ولكن علينا الآن — كما قال القديس ريمى لكلوفيس — إن نحرق ماعبدنا ، ونعبد ما أحرقنا(١٢) . » وقابلت المركيزة درامبوييه الهجوم بعبقرية ، إذ اتفقت مع موليير على إحياء حفلة يخصص ايرادها لصالونها ، وقد رد على مجاملتها بمقدمة زعم فيها أنه لم يهج صالونها بل مقلديه . على أية

حال انتهى ملك « المتحذلقات » . وقد أشار بوالو فى هجائيته العاشرة إلى تلك « العقول الجميلة التى كانت بالأمس ذائعة الصيت ، والتى فرغها موليير بضربة واحدة من فنه » .

وقد نجحت المسرحية نجاحا ضوعف معه أجر مشاهدتها عقب حفلة الافتتاح . وقد مثلت فى عامها الأول أربعا وأربعين مرة ، وأمر الملك بإحياء ثلاث حفلات للبلاط ، حضرها جميعا ، ونفح الفرقة بثلاثة آلاف جنيه . وما وافى فبراير ١٦٦٠ حتى كانت الفرقة الشاكرة قد دفعت ٩٩٩ جنيها جعالة للمؤلف . ولكنه كان قد ارتكب غلطة إذ ضمن المسرحية إشارة هجا بها ممثلى المسرح الملكى « فما من إنسان قادر على أن يشهر شيئا إلا هم ، أما غيرهم فقوم جهلاء يمثلون أدوارهم كأنهم يتحدثون . هؤلاء لا يفقهون كيف يجعلون أبيات الشعر تجلجل ، أو كيف يقفون عند فقرة جميلة . فكيف تعرف الأبيات الرائعة إذا لم يقف الممثل عندها ويخبرك بهذه الطريقة أن تصفق استحسانا(١٣) ؟ » .

وأعربت فرقة الأوتيل دبوربون عن احتقارها السافر لموليير لعجزه عن إخراج المأساة ، ولقدرته على الملهاة الرخيصة دون غيرها . وعزز موليير حجتهم بتأليفه وعرضه مسلاة « فارص » متوسطة الجودة سماها « الديوث بالوهم » ولو أن الملك سر بأن يشهدها تسع مرات .

وكانت التغييرات تجرى خلال ذلك فى مبنى اللوفر القديم ، فهدمت صالة البتى بوربون فى استهتار ، ولاح حينا أن « فرقة المسيو » التى يرأسها موليير لن تجد لها مسرحا . ولكن الملك المعطوف دائما بادر إلى إنقاذه بأن خصص له فى الباليه — رويال « الصالة » التى خصصها ريشليو لعرض التمثيليات . وهناك ظلت فرقة موليير حتى مماته وكأنها جزء من جسم البلاط . وكان أول عرض له فى هذا المأوى الجديد آخر محاولاته فى المأساة ، وهى « دون جراسى » . وكان رأيه — وله فيه بعض العذر —

أن أسلوب المأساة الخطابى الفخم كما طوره كورنيى ، ومثلته فرقة الأوتيل دبورجون ، أسلوب غير طبيعى ، وكان يتطلع إلى أسلوب أبسط وأكثر طبيعية . ولو سمح له تسلط النزعة الكلاسيكية على المسرح (وفواقه) لجاز أن ينتج مزيجاً موفقاً من المأساة والملهاة كما فعل شيكسبير ، فإن فى أعظم ملاهيه والحق يقال مسحة من المأساة . ولكن « دون جراسى » سقطت ، برغم جهود الملك لدعمها بحضورة ثلاث حفلات ، لقد كان قدر موليير أن يكايد المأساة لا أن يمثلها .

وعليه فقد عاد إلى الملهاة . ولقيت « مدرسة الأزواج » نجاحاً طيب خاطره إذ عرضت يومياً من ٢٤ يونيو إلى ١١ سبتمبر ١٦٦١ . وقد آذنت بزواج موليير الوشيك ، وكان وقتها فى التاسعة والثلاثين ، من أرمانده بيجار ، ذات الثمانية عشر ربيعاً ، ومشكلة المسرحية هى : كيف ينبغى أن يروض الشابة على أن تكون زوجة صالحة أمينة ؟ فالشقيقان أريست وسجاناريل محظوظان لكونهما الوصيين على الفتاتين اللتين ينويان الزواج منهما أما أريست ، البالغ من العمر ستين عاماً ، فيعامل فتاته القاصر ليونور ، ذات الثمانية عشرة ، بغاية اللين :

« لم أنظر إلى تجاوزاتها الصغيرة على أنها جرائم . ولقد لبيت على الدوام رغباتها الشابة ، ولست ولله الحمد آسفا على ذلك . فقد أذنت لها بأن تخالط الأصحاب الطيبين ، وتشهد الملاهى ، والتمثيليات ، والمراقص ، فهذه أشياء أراها على الدوام صالحة لتربية عقول الشباب ، وما الدنيا إلا مدرسة أحسبها تعلم طريقة العيش خيراً من أى كتاب . إنها تحب أن تنفق المال على الثياب ، والقمصان ، والأزياء الجديدة . . وأنا أحاول أن أشبع رغباتها ، فهذه لذات ينبغى أن نتيحها للشابات متى استطعنا توفيرها لهن[١٤] » .

وأما الأخ الأصغر سجاناريل فيحتقر أريست لأنه إنسان أحمق ضلالته أحدث الأوهام . وهو يأسف على زوال الفضائل القديمة وعلى انحلال الأخلاق

الجديدة ، وعلى وقاحة الشباب المتحرر . وهو ينوى أن يأخذ فتاته القاصر إيزابيل بنظام صارم ليروضها على أن تكون زوجه مطيعة :

« لا بد أن ترتدى الملابس اللائقة ... فإذا لزمت بيتها كما تلزمه المرأة العاقلة انصرفت بجمعها إلى شئون الزوجية ، فترفو الثياب فى ساعات فراغها أو تحبك الجوارب لتتسلى بها . ولن تخطو خطوة خارج البيت إلا إذا قام عليها رقيب ... إنني لن ألبس قروناً إذا استطعت إلى ذلك سبيلا » .

وبعد دسيسة بعيدة الاحتمال (منقولة عن ملهاة أسبانية) تهرب إيزابيل مع عاشق ذكى ، فى حين تتزوج ليونور من أريست وتظل وفية له إلى آخر التمثيلية .

وواضح أن موليير كان يحاور نفسه . ففى ٢٠ فبراير ١٦٦٢ ، وهو فى الأربعين ، تزوج بأمرأة تصغره بنصف عمره . أضف إلى ذلك أن عروسه هذه — أرماند بيجار — كانت ابنة مادلين بيجار ، التى كان موليير يعاشرها قبل عشرين عاماً . وقد اتهمه خصومه بالزواج من ابنته غير الشرعية . وكتب مونفلورى ، رئيس فرقة الأوتيل دبورجون المنافسة ، إلى لويس ينبئه بهذا فى ١٦٦٣ ، وكان جواب لويس أن جعل نفسه عراباً لأول طفل ولدته أرماند لموليير . أما مادلين ، حين لقيها موليير ، فكانت أشد احتفالا بشخصها من أن تتيح لنا أى معرفة يقينية بنسب أرماند . ويبدو أن موليير لم يعتقد أنه أبو الفتاة ، ولنا أن نفترض أن معلوماته فى هذه النقطة كانت أفضل قليلا مما يمكن أن تكون عليه معلوماتنا نحن .

كانت أرماند قد شبت كأنها حيوان الفرقة للدال . وكان موليير يراها كل يوم تقريباً ، وقد أحبها طفلة قبل أن يعرفها امرأة بزمن طويل . وكانت الآن قد أصبحت ممثلة مكتملة النضج . أما وقد نشأت فى هذا الجو فانها لم تخلق لتكون زوجة لرجل واحد ، لاسيما رجل قد أبلى روح الشباب .

لقد أحبت لذات الحياة واستغرقت فى معابثات فسرها الكثيرون على أنها خيانات للزوج ، وعانى موليير من جراء ذلك ، وكان أصدقاؤه وأعداؤه يلوكون الشائعات عنه . وبعد زواجه بعشرة أشهر حاول أن يهدىء جراحه ينقد غيرة الرجال والدفاع عن تحرر النساء . لقد حاول أن يكون أريست ، ولكن أرماند لم تستطع أن تكون ليونور . ولعله أخفق فى أن يكون أريست لأنه كان نافد الصبر شأنه شأن أى مخرج مسرحى . وفى « تمثيلية فرساى المرتجلة » (أكتوبر ١٦٦٣) وصف نفسه إذ يقول لزوجته «اسكتى أيتها الزوجة ، فما أنت إلا حمارة» . فتجيب « شكراً لك أيها الزوج الطيب . أنظر ما صار إليه أمرنا . أن الزواج يغير الناس تغييراً عجيباً ، فما كنت لتقول هذا قبل سنة ونصف(١٥) » .

وواصل تأملاته فى الغيرة والحرية فى مسرحيته «مدرسة الزوجات» التى عرضت أول مرة فى ١٦ ديسمبر ١٦٦٢ . ومنذ بدايتها تقريباً تراها تضرب على هذا الوتر — الزوج الديوث . فترى آرنولف الذى لعب موليير دوره هنا أيضاً طاغية من الطراز العتيق ، يؤمن بأن المرأة المتحررة امرأة فاسقة ، وأن السبيل الأوحد لضمان وفاء الزوجة هو ترويضها على الخدمة المتواضعة ، وعلى فرض الرقابة الصارمة عليها وإغفال تعليمها . وتشب أنييس ، القاصر التى كان وصيا عليها وعروسه المستقبلة ، فى براءة حلوة ، حتى أنها تسأل آرنولف فى عبارة تردد صداها فى طول فرنسا وعرضها ، « أيولد الأطفال من الأذن(١٦) ؟ » . ولما كان آرنولف لم يتحدث إليها بشىء عن الحب ، فأنها ترحب فى سرور برىء بتودد هوراس الذى يجد طريقه إليها أثناء غيبة قصيرة للوصى . فإذا عاد آرنولف قصت عليه وصفاً موضوعياً لمسلك هوراس :

آرنولف : حسنا ، ولكن ماذا صنع حين انفرد بك ؟

آنييس : قال إنه يحبنى حباً حاراً لا نظير له . وقال لى بألطف لغة فى

الدنيا أشياء لا يمكن أن يعدلها شيء . وقد أبهجني لطف حديثه كلما استمعت إليه ، وأثار فى شيئاً لا أعرفه ، عاطفة سحرتني تماماً .

آرنولف : (جانباً) يا له من تحقيق معذب فى سر قتال ، يعانى فيه المحقق كل الألم ! (بصوت عال .) ولكن علاوة على هذا الحديث كله ، وهذة الأساليب اللطيفة كلها ، ألم يقبلك بعض القبلات أيضاً ؟

أنييس : أوه ! إلى هذا الحد ! لقد تناول يدى وذراعى ولم يتعب قط من تقبيلها .

آرنولف : ألم يأخذ شيئاً آخر منك يا أنييس ؟ (ملاحظا حيرتها) ها ؟

أنييس : بلى ، لقد .

آرنولف : ماذا ؟

أنييس : أخذ .

آرنولف : كيف ؟

أنييس : الـــ .

آرنولف : ماذا تعنين ؟

أنييس : لا أجرؤ على إخبارك ، لأنك قد تغضب منى .

آرنولف : لا .

أنييس : نعم ، ولكنك ستغضب .

آرنولف : يا للهول ، لن أغضب .

أنييس : احلف إذن .

آرنولف : أحلف .

أنييس : أخذ سيثور غضبك .

آرنولف : لا .

أنييس : نعـم .

آرنولف : لا ،لا ، لا ، لا . بحق الشيطان ما هو هذا السر ؟ ماذا أخذ منك ؟

أنييس : أنه ـ

آرنولف : (جانباً) إنى أقاسى عذاب الجحيم .

أنييس : أخذ الوشاح الذى أعطيتني، أصدقك القول أننى لم أستطع منعه.

آرنولف : (متمالكاً نفسه) : لا بأس بالوشاح . ولـكنى أريد أن أعلم ألم يفعل شيئاً غير تقبيل يديك ؟

أنييس : أيفعل الناس أشياء أخرى ؟

آرنولف : لا ، لا . . . ولـكنى باختصار لا بد أن أخبرك أن قبول علب الجواهر والاستماع إلى القصص العاطلة يقصها هؤلاء الغنادير المتبرجون، والسماح لهم وأنت مسترخية بتقبيل يديك وفتنة قلبك بهذه الطريقة — هذا كله خطيئة مميتة ، بل أفظع خطيئة يمـكن أن ترتـكبها .

أنييس : تقول خطيئة ! والسبب من فضلك ؟

آرنولف : السبب ؟ لأنه مكتوب صراحة أن السماء تغضبها أفعال كهذه.

أنييس : تغضبها ؟ ولـكن لم تغضب السماء ؟ واأسفاه ؟ إنه شيء حلو لذيذ ، تعجبنى البهجة التى أجدها فيه ، ولم أعرف من قبل هذه الأشياء.

آرنولف : نعم ، هناك الـكثير من اللذة فى هذه العواطف الرقيقة ، وهذه الأحاديث اللطيفة ، وهذه القبل الحارة ، ولـكن ينبغى تذوقها بطريقة شريفة ، والزواج كفيل بأن يمحو عنها الخطيئة .

أنييس : أفلا تعد خطيئة إذا كان الإنسان متزوجاً ؟

آرنولف : نعـم .

أنييس : أرجوك إذن أن تتزوجنى حالا(١٧) .

وتهرب أنييس إلى هوراس بعد قليل طبعاً . ولـكن آرنولف يقتنصها من جديد ويوشك أن يضربها حين يوهن من عزيمته حلاوة صوتها وجمال جسدها ، وربما كان موليير يفكر فى أرماند وهو يكتب عبارات آرنولف التالية :

« أن ذلك الحديث وتلك النظرة يجردان غضبى من سلاحه ، ويميدان إلى الحنان الذى يمحو ذنبها كله . فما أعجب أن يحب الإنسان ! وأن يكون الرجال عرضة لمثل هذا الضعف أمام هؤلاء الخائنات افـكلنا يعرف نقصهن ، فما هن إلا التبذير والحماقه ، وذهنهن شرير وفهمهن ضعيف ، وما من شىء أوهن منهن ، ولا أقل ثباتاً ، ولا أكذب ، ومع ذلك كله فالرجل يصنع كل شىء فى الدنيا من أجل هؤلاء الحيوانات(١٨) » .

وفى النهاية تهرب منه وتتزوج هوراس . أما آرنولف فيعزيه صديقه كريسالد بفـكرة مؤداها أن امتناع الرجل عن الزواج هو الطريقة الأكيدة الوحيدة التى تقيه من أن يطلع له قرنان فى رأسه .

وأبهجت التمثيلية جمهورها ، فمثلت إحدى وثلاثين مرة فى الأسابيع العشرة الأولى ، وكان فى الملك من الشباب ما سمح له بالاستمتاع بخلاعتها ، ولـكن عناصر البلاط الأشد محافظة انتقدوا الملهاة لما فيها من مجافاة للفضيلة ، وكرهت السيدات فـكرة الولادة من الأذن ، وندد الأمير كونتى بمنظر الفصل الثانى الذى سقنا حواره من قبل بين آرنولف وأنييس زاعما أنه أفضح ما عرض على خشبة المسرح . ولعن بوسويه التمثيلية برمتها ، ودعا بعض القضاة إلى حظرها باعتبارها خطراً على الأخلاق والدين ، وسخرت الفرقة المنافسة من ابتذال الحوار وتناقضات رسم الأشخاص وشطحات الحبكة المتعجلة . وظلت التمثيلية حيناً « حديث كل بيت فى باريس(١٩) » .

وكان فى موليير من حب النضال مالا يدعه يترك هذا النقد كله دون تعليق منه . ففى تمثيلية ذات فصل واحد مثلت فى الباليه رويال فى أول يونيو ١٦٦٣ ، واسمها « نقد مدرسة الزوجات » عرض لنا لقاء بين نقاده وتركهم يعربون بعنف عن اعتراضاتهم ، ولم يكد يرد عليها إلا بأن يدع النقد يضعف ذاته بمبالغته ، وأن يجريه على ألسنة شخصيات مثيرة للسخرية . وواصل الأوتيل دبورجون « الحرب الكوميدية » بإخراجه هزلية قصيرة سماها « الناقد المعارض » ، وهجا موليير الفرقة الملكية فى « تمثيلية قرسای المرتجلة » (١٧ أكتوبر ١٦٦٣) . وساند الملك موليير فى وفاء ، ودعاه إلى العشاء(٢٠) ، ومنحه الآن معاشا سنويا قدره ألف جنيه ، لا بوصفه « ممثلا كوميديا » بل « شاعرا فذا(٢١) » . كذلك نصر الزمن موليير ، فمدرسة الزوجات تعتبر اليوم أول ملهاة عظيمة فى المسرح الفرنسى .

٤ — غرام طرطوف

ولكن موليير دفع ثمن حظوته لدى الملك . فلقد أحب لويس ظرفه وشجاعته ، فجعله من كبار المنظمين للملاهى فى فرساى وسان — جرمان . وقد ملأ أحد هذه المهرجانات المسمى « مباهج الجزيرة المسحورة » أسبوعا (٧ — ١٣ مايو ١٦٦٤) بألعاب السيف والولائم والموسيقى والباليه والرقص والدراما — وكلها أقيم فى حديقة فرساى وقصره تحت أضواء المشاعل والشمعدانات التى تحمل أربعة آلاف شمعة . وكوفىء موليير على جهوده فى هذا المهرجان بستة آلاف جنيه . وقد أسف بعض الأدباء لإسراف الملك فى استغلال عبقرية موليير لكى يوفر هذا اللهو الخفيف فى البلاط ، وتصوروا تلك الروائع التى كان من الجائز أن يكتمل نضجها لو أن الشاعر الكامن فى الكوميدى أتيح له مزيد من الوقت للتفكير والكتابة . غير أنه كان واقعا تحت ضغط من فرقته أيضا ، وما كانت شواغله ومسئولياته

مديرا للفرقة وممثلا بها لتسمح له على أية حال بالاعتكاف فى أى برج عاجى. وما أكثر المؤلفين الذين يكتبون تحت ضغط ملح خيرا مما يكتبون فى الفراغ ، فالفراغ يرخى الذهن ، والإلحاح يشحذه . ولقد أخرج موليير أعظم تمثيلياته أول مرة فى ١٢ مايو ١٦٦٤ ، فى قمة « مباهج الجزيرة المسحورة » ، وكانت جزءا من المهرجان .

فى هذا العرض الأول لم تكن « طرطوف » بالتمثيلية المناسبة تماما للمهرجان ، لأنها فضحت فى غير رحمة ذلك النفاق الذى يتخفى خلف رداء من التقوى والفضيلة . وكانت جماعة دينية من الإخوة العلمانيين تدعى « جمعية السر المقدس » ، وعرفت فيما بعد بـ« عصبة الورعين » قد قطعت العهود على أعضائها بأن يعملوا على حظر التمثيلية . أما الملك الذى كانت علاقته الغرامية بلافاليير قد أثارت كثيرا من نقد هؤلاء الورعين ، فقد كان مزاجه يدعوه للاتفاق مع موليير ، ولكنه بعد أن شاهد الملهاه فى عرضها الخاص بفرساى أوقف الأذن بعرضها على نظارة باريس فى الباليه — رويال . وطيب خاطر موليير بدعوته ليقرأ « طرطوف » فى فونتنبلو على نخبة مختارة تضم ممثلا للبابا لم يذكر التاريخ أنه اعترض عليها (٢١ يوليو ١٦٦٤) . فى ذلك الشهر مثلت المسرحية فى بيت دوق أورليان ودوقتها (هنرييتا آن) ، فى حضرة الملكة ، والملكة الأم ، والملك . وبينما كان يجرى التمهيد لعرضها على الجماهير أذاع كاهن سان — برتلمى ، بيير روليه ، فى أغسطس ثناء على الملك لحظره التمثيلية ، واغتنم هذه الفرصة ليرمى موليير بأنه « رجل ، بل شيطان متجسد فى ثوب رجل ، وأشهر مخلوق فاسق منحل عاش إلى الآن » . ثم قال الأب روليه إن جزاء موليير على تأليف طرطوف « أن يحرق على الخازوق ليذوق من الآن نار الجحيم(٢٢) » . ووبخ الملك روليه ، ولكنه ظل يحبس الإذن بعرض طرطوف علنا . ولكى يظهر حقيقة موقفه رفع معاش موليير السنوى إلى ستة آلاف جنيه ، وتلقى

عن « المسيو » حماية فرقة موليير » فأصبحت منذ الآن « فرقة الملك » .

وظل الجدل مضطرما تحت الرماد حامين . ثم قرأ موليير على الملك نسخة منقحة من التمثيلية ، أضاف إليها سطورا تذكر أن الهجاء ليس موجها ضد الإيمان الصادق بل ضد الرياء . وأيدت مدام هنريتا التماس المؤلف الإذن بعرض المسرحية . ووافق لويس موافقة شفوية ، وبينما كان منطلقا إلى الحرب فى فلاندر عرضت طرطوف لأول مرة على مسرح الباليه — رويال فى ٥ أغسطس ١٦٦٤ بعد مرور ثلاث سنين على أول عرض لها فى البلاط . وفى الغد أمر رئيس باريس ، وكان ينتمى لجماعة السر المقدس ، بغلق المسرح وتمزيق كل لافتاته . وفى ١١ أغسطس حظر رئيس أساقفة باريس قراءة الملهاة أو سماعها أو تمثيلها سرا أو علانية ، وإلا كان الحرم جزاء المخالف . وأعلن موليير أنه سيعتزل المسرح إذا استمر انتصار « الطراطيف » هذا . أما الملك الذى عاد إلى باريس فقد أمر الكاتب المسرحى الغاضب بأن يتذرع بالصبر ، ففعل ، وأثيب فى النهاية برفع الحظر الملكى . وفى ٥ فبراير ١٦٦٩ بدأت التمثيلية فترة عرض ناجحة اتصلت ثمانية وعشرين مرة . وبلغ من كثرة الراغبين فى دخول المسرح وتهافتهم عليه فى أول حفلة علنية أن الكثيرين كادوا يختنقون . لقد كانت « أشهر مسرحية » فى حياة موليير المسرحية . وقد حظيت دون جميع الدرامات الكلاسيكية الفرنسية بأكبر عدد من العروض — بلغت ٢٫٦٥٧ (حتى سنة ١٩٦٠) فى مسرح الكوميدى — فرانسيز وحده .

ولكن إلى أى حد تعلل محتويات التمثيلية تأجيلها الطويل ، وشعبيتها المتصلة ؟ أنها تعلل التأجيل بهجومها الصريح على التظاهر بالتقوى ؛ وتعلل الشعبية بقوة هجائها وبراعته . وكل مافى ذلك الهجاء مبالغ فيه بالطبع . فقلما يكون الرياء مستهترا كاملا كما كان فى طرطوف ، وقلما يكون الغباء مفرطا كما كان فى أورجون ، وليس هناك خادمة نجحت فى وقاحتها كما نجحت

دورين . وحل عقدة التمثيلية لا يصدق ، كما هى الحال عند موليير دائما تقريبا ، ولكن هذا لم يقلقه ، فبعد أن يقدم صورته واتهامه للنفاق ، تكفى أى حيلة مسرحية — كتدخل الإله أو الملك — لحل العقدة بانتصار الفضيلة وعقاب الرذيلة . وأغلب الظن أن الهجاء قصد به جماعة السر المقدس الذين أخذ أعضاؤه على عاتقهم أن يوجهوا ضمائر الناس ، حتى ولو كانوا علمانيين ، ويبلغوا الخطايا السرية للسلطات العامة ويتدخلوا فى شئون العائلات لزيادة الولاء والإخلاص للدين . وقد أشارت التمثيلية مرتين إلى « عصبة » (فى السطرين ٣٩٧ و ١٧٠٥) ، وواضح أن هذا تلميح إلى عصبة الورعين . وعقب العرض الأول للتمثيلية حلت جماعة السر المقدس .

أما أورجون ، البورجوازى الغنى ، فيرى طرطوف لأول مرة فى الكنيسة فينبهر لمرآه .

« آه لو رأيته ... إذن لأحببته كما أحبه . . كان يأتى كل يوم إلى الكنيسة هادىء الهيئة ثم يركع بجوارى . وقد لفت أنظار المصلين جميعا بحرارة الابتهالات التى رفعها إلى السماء . كان يتأوه ويئن أنينا شديدا ، وفى كل لحظة يقبل الأرض فى تذلل . فإذا شرعت فى الخروج تقدمنى ليقدم إلى الماء المقدس عند الباب . وإذ أدركت . . رقة حاله .. كنت أهديه الهدايا ، ولكنه كان على الدوام يعرض أن يرد إلى بعضها .. وأخيرا حفزتنى السماء على أن آخذه إلى بيتى ، وبدا لى منذ تلك اللحظة أن كل شىء يزكو . وأنا أراه يلوم دون تفرقة بين الناس ، وألحظ أنه ، حتى فيما يتصل بزوجتى ، شديد الحرص على عرضى . فهو ينبئنى ممن يرمقها بنظرات الهيام(٢٣) » .

ولكن طرطوف لا يروع زوجة أورجون وأبناءه كما راعه . ذلك أن شهيته الطيبة ، وولعه بأطايب الطعام ، وكرشه المكور ، ووجهه المتورد

كل أولئك يذهب فى نظرهم بأثر عظاته . ويرجو كليانت زوج أخته أورجون أن يميز بين الرياء والدين :

« كما أننى لا أعرف فى الحياة خلقا أعظم ولا أجل من التقوى الصادقة ، ولا شيئا أنبل ولا أجمل من حرارة الورع المخلص ، فإننى لا أرى شيئا أشد نكراً من طلاء الغيرة الزائفة ، ومن هؤلاء الدجالين ، هؤلاء الاتقياء مظهراً . . . الذين يتجرون بالتقوى ، ويريدون أن يشتروا أسباب التكريم وحسن الأحدوثة برفع العيون إلى السماء فى رياء ، وبانتشاءات القداسة المفتعلة » .

ولكن أورجون يمضى فى تصديق مزاعم طرطوف ، ويخضع لأرشاده ، ويطلب له المعونة من الله إذا تجشأ ، ويقترح تزويجه من ابنته ماريان التى تؤثر عليه فاليز فى عنف أما بطلة التمثيلية الحقيقية فهى دورين ، خادمة ماريان ، التى يبدو — كما فى كل الملاهى الكلاسيكية — أنها تثبت أن العناية الإلهية وزعت العبقرية توزيعا يتناسب تناسبا عكسيا مع المال . وما أبهج استقبالها لطرطوف عند دخوله المسرح أول مرة :

طرطوف : (يكلم خدمه بصوت عال حين يرى دورين) . يا لورنس ، اقفل على وشاحى الوبرى وسوطى ، والتمس من السماء أن تنيرك بالنعمة دائما . وإذا جاء أحد لزيارتى فقل إنى ذهبت إلى السجون لأوزع صدقاتى .

دورين : (جانبا) أى تصنع وأى لؤم !

طرطوف : ماذا تريدين ؟

دورين : أن أقول لك —

طرطوف : (وهو يسحب منديلا من جيبه) أوه . ياللهول . أرجوك أن تأخذى هذا المنديل منى قبل أن تتكلمى .

دورين : ولم ؟

طرطوف : غطى ذلك الصدر الذى لا أطيق رؤيته . مثل هذه الأشياء تؤذي النفس وتغرى بالأفكار الآثمة .

دورين : إذن فأنت تذوب ذوبانا أمام التجربة ، ومنظر الجسد يؤثر فى حواسك تأثيراً شديداً ؟ الحق أننى لا أعرف أى حرارة تلهبك ، ولكنى عن نفسى لست عرضة مثلك لهذا التلهف على الجسد . فنى وسعى الآن أن أراك عارياً تماماً من رأسك إلى قدمك ، دون أن يغريني جلدك هذا كله أى أغراء (٢٤) .

والمنظر التالى لب الملهاة . ترى فيه طرطوف يطارح زوجة أورجون ـ ايلمير ـ الغرام ، ويستعمل لغة التقى فى توسلاته . وينبأ أورجون بخيانته ، ولكنه يأبى أن يصدق ، واظهاراً لثقته بطرطوف ينزل له عن أملاكه كلها . ويستسلم طرطوف لقبولها قائلا « لتكن مشيئة السماء فى كل شىء (٢٥) » وتحل ايلمير الموقف ، إذ تخبىء زوجها تحت مائدة ، وترسل فى طلب طرطوف ، وتلوح له ببارقة تشجيع ، ثم توقعه فى محاولات للاستطلاع الغرامى . وتتظاهر بالرضى ، ولكنها تزعم أنها تحس وخزات الضمير ، فيتناول طرطوف هذا الزعم بفتوى الخبير ، وواضح أن موليير قرأ من قبل رسائل بسكال الريفية واستطابها :

« طرطوف : إذا لم يكن غير السماء عقبة فى طريق رغباتى ، فما أيسر أن أزيح هذه العقبة — صحيح أن السماء تنهى عن لذات معينة ، ولكن هناك طرق لتسوية تلك الأمور . فشد أوتار الضمير وفق مقتضيات الحال ، وتصحيح فساد الفعل بطهارة النية — ذلك علم أى علم (٢٦) » .

ويظهر أورجون من مخبئه ، ويأمر طرطوف غاضباً بأن يخرج من بيته ، ولكن طرطوف يبين له أن البيت أصبح ملكاً له بحكم العقد الذى وقعه أورجون مؤخراً . ويقطع موليير هذه العقدة ، دون كبير براعة ، بأن يجعل

عمال الملك يكتشفون فى اللحظة المناسبة أن طرطوف مجرم تبحث عنه العدالة منذ زمن طويل . ويستعيد أرجون أملاكه ، ويظفر فالير بمريان ، وتختتم التمثيلية بنشيد شكر شجى يشيد بعدل الملك وأحسانه .

٥ ـ الملحد العاشق

ولكن إحسان الملك لابد قد أرهقته تمثيلية موليير الجريئة التالية . ففى ذروة الحرب المحتدمة حول « طرطوف » ، وبينما كانت جماعة الورعين لا يزالون منتصرين فى أمر حظر التمثيلية ، عرض موليير في الباليه — رويال (١٥ فبراير ١٦٦٥) مسرحية « وليمة التمثال الحجرى » التى قص فيها بنتر يطفر مرحا قصة دون جوان القديمة المكرورة ، وجعل فيها ذلك الزير المستهتر ملحداً مغروراً . وقد أخذ شكلها الظاهر عن تيرسودى مولينا وغيره ، ولكنه ملأها بدراسة رائعة لرجل يلتذ الشر لذاته وتحدياً لله . والمسرحيه صدى مدهش لذلك الجدل الكبير الذى تورط فيه الدين مع الفلسفة .

ودون جوان تينوريو مركيز يسلم بالتزاماته قبل طبقته ، ولكنه فيما عدا ذلك يريد أن يستمتع بما يشتهى من لذات . ويحصى تابعه سجاناريل عدد النساء اللاتى أغواهن مولاه ثم هجرهن فيجدهن ١٠٠٣ . يقول جوان « إن الوفاء صفة لا تصلح إلا للحمق .. فليس فى وسعى أن أحرم قلبى من أى مخلوقة جميلة أراها[٢٧] » ومثل هذا الخلق يتوق إلى لاهوت يلائمه ، ومن ثم يصبح جوان ملحداً ابتغاء راحته . ويحاول خادمه أن يناقش الأمر معه :

سجاناريل : أيمكن أنك لا تؤمن بالجنة ؟

جوان : انس الموضوع .

سجاناريل : أى أنك لا تؤمن . وما رأيك فى جهنم ؟

جوان : إه !

سجاناريل : كلا إيمانك بالجنة . وما رأيك فى الشيطان من فضلك ؟

جوان : نعم ، نعم .

سجاناريل : قليلا جداً كذلك . ألا تؤمن بحياة أخرى على الأطلاق ؟

جوان : ها ، ها ، ها .

سجاناريل : هذا رجل سيشق على هدايته . ولكن قل لى ، لابد أنك تؤمن بـ « الراهب الفظ* » .

جوان : تباً للأحمق .

سجاناريل : أما هذا فلا أطيقه ، لأن ليس هناك كائن وجوده مؤكد كهذا الراهب الفظ ، وقاتلني الله أن لم يكن وجوده حقيقياً . ولكن المرء يجب أن يؤمن بشىء . فبأى شىء تؤمن ؟ . . .

جوان : أومن بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وأربعة وأربعة يساويان ثمانية .

سجاناريل : يالها من عقيدة جميلة ومواد إيمان رائعة ! إذن فدينك — على قدر ما أفهمه — هو الحساب ؟ أما أنا يا مولاى . . . فأفهم جيداً أن هذا العالم ليس شيئاً كالفطر نما فى ليلة واحدة . أريد أن أسألك منذا الذى صنع هذه الأشجار والصخور والأرض والسماء من فوقنا ؟ أهذا كله بنى نفسه بنفسه ؟ أنظر إلى نفسك مثلا ، فها أنتذا موجود ، أصنعت نفسك ، وألم يكن لزاماً أن يغشى أبوك أمك ليصنعك ؟ أتستطيع أن ترى كل المخترعات التى تتألف منها الآلة البشرية دون أن تعجب كيف يشغل الجزء منها جزءا آخر ؟ ومهما قلت ، فإن هناك شيئاً معجزاً فى الإنسان لن يستطيع كل المتنطعين فى العلم أن يفسروه . أليس عجيباً أن ترانى هنا ، وأن فى رأسى

(*) شبح مزعوم تخوف به المربيات والأمهات الأطفال .

شيئا يفكر فى مائة شىء مختلف فى لحظة ويأمر بدنى بأن يصنع ما أريد ؟ أريد أن أصفق بيدى ، وأرفع ذراعى ، وأنظر بعينى إلى السماء ، واخفض رأسى ، وأحرك قدمى ، وأمشى يميناً ، ويساراً ، وأماماً ، وخلفاً ، وأدور (يقع على الأرض وهو يدور) .

جوان : هذا حسن ! أن لحجتك أنفاً مكسورا (٢٨) .

وفى المشهد التالى تتخذ الخصومة بين جوان والدين صورة أخرى . فهو يلتقى بشحاذ يزعم له أنه يصلى كل يوم من أجل المحسنين إليه ، فيقول جوان : « أن رجلا يصلى كل يوم لا بد أن يكون غنياً جداً » ويجيب الشحاذ إن الأمر على العكس من ذلك « فنى أكثر الأحيان لا أجد حتى كسرة خبز » ويعرض عليه جوان جنيهاً ذهبياً « شريطة أن يجدف ، ولكن الشحاذ يرفض « إنى أفضل الموت جوعا » ويذهل جوان قليلا لهذه الصلابة فيعطيه قطعة النقود وهو يقول « حبا فى الإنسانية (٢٩) » ويعرف كل رواد الأوبرات نهاية القصة ، إذ يصادف جوان تمثالا للقائد الذى أغوى ابنته وأودى بحياته . فيدعوه التمثال إلى العشاء ، فيحضر ، ويناوله يده ، فيقوده إلى الجحيم . ويظهر الجهاز الشيطانى المعهود فى المسرح الوسيط ، « فينقض الرعد والبرق بضوضاء عظيمة على دون جوان ، وتفغر الأرض فاها وتبتلعه ، وتندلع نار هائلة من المكان الذى سقط فيه » .

وقد صدم الجمهور فى أول ليلة لما رأى من فضح ، وليبرلكفر جوان . ولعل هذا الجمهور لم يكن يرى بأسا بأن يفضح سفالة جوان وافتقاره إلى اللاهوت ، وبأنه أماط اللثام عنه وحشا لا ضمير له ولا حنو ، ينشر الخداع والحزن أينما ذهب ، ولعله لاحظ أن المؤلف عرض ضحايا الوغد بكل ما فيه من عطف ، ولكنه لاحظ أن الرد على الكفر جاء على لسان أحمق يؤمن بالعفاريت إيمانا أرسخ من إيمانه بالله ، ولم يخفف من وقع هذا الكفر القاء جوان فى الجحيم أخيراً ، لأن الجمهور رآه يهبط إلى الجحيم

دون كلمة ندم أو خوف . وبعد العرض الأول خفف موليير من حدة أكثر الفقرات ايذاء ، ولـكن هذا لم يهدىء ثائرة الرأى العام . ففى ١٨ أبريل ١٦٦٥ نشر سيد روشمون ، المحامى فى البرلمان ، « ملاحظات حول مسرحية لموليير » فيها وليمة التمثال الحجرى بأنها « شيطانية حقا . . لم يظهر قط أفسق منها حتى فى العهود الوثنية » ثم أهاب بالملك أن يحظر التمثيلية :

« فبينما يحرص هذا الملك النبيل الحرص كله على صون الدين ، نرى موليير يعمل على هدمه . . فليس فى وسع انسان مهما قل علمه بتعاليم الدين أن يؤكد بعد رؤية التمثيلية أن موليير أهل للمشاركة فى تناول الاسرار للقدسة مادام سادرا فى عرضها ، أو يستحق أن تقبل توبته دون عقاب علنى(٣٠) » .

ولـكن لويس واصل رضاءه عن موليير . ومثلت « وليمة التمثال الحجرى » ثلاثة أيام كل أسبوع من ١٥ فبراير إلى أحد السعف . ثم سحبت ، ولم تعد إلى خشبة المسرح إلا بعد موت مؤلفها بأربع سنوات ، ولم تعد إلا على صورة اقتباس شعرى بقلم توما كورنيى الذى حذف المشهد الفاضح الذى نقلناه . أما النسخة الأصلية فقد اختفت ، ثم اكتشفت ثانية فى ١٨١٣ طبعة مسروقة نشرت بأمستردام فى ١٦٨٠ . وظلت نسخة كورنيى تحتكر المسرح حتى ١٨٤١ ، وهى لا تزال تحتل مكان الأصل فى بعض طبعات أعمال موليير (٣١) .

٦ ـ موليير فى أوجه

وكأن موليير لم يكفه ما أثار عليه من خصوم ، فراح يهاجم مهنة الطب . وكان قد صور دون جوان بأنه « فاجر فى الطب » ورأى أن الطب « من أكبر كبائر الإنسانية(٣٢) » وكان قد خبر بنفسه ما فى أطباء القرن السابع عشر من قصور وغرور . وخيل إليه أن الأطباء قتلوا ابنه حين وصفوا له حجر الكحل (الأنتيمون) ، ورآهم يقفون موقف العاجز من تدرنه

الذى يسير بخطى حثيثة (٣٣) . كذلك كان الملك ساخطا على ما يعطونه من مسهلات وما يفصدون من دمه كل أسبوع . ويقول موليير إن لويس هو الذى أغراه بوضع الأطباء على السفود . وعليه فقد كتب فى خمسة أيام تمثيلية « الحب خير طبيب » مستعيرا من الملاهى القديمة فى هذا الموضوع القديم . وقد أخرجت بفرساى فى ١٥ سبتمبر ١٦٦٥ فى حضرة الملك الذى « ضحك لها من قلبه » ولقيت الترحيب الحار حين مثلت بعد أسبوع فى الباليه — رويال . وهى تحكى قصة مريضة يدعى لفحصها أربعة أطباء . فيختلون للمداولة ، ولكنهم لايناقشون إلا شئونهم الخاصة . فإذا أصر والد المريضة على قرار وعلاج ، وصف أحدهم لها حقنة شرجية ، وأقسم الآخر أن الحقنة ستقتلها لا محالة . ثم تتعافى المريضة بغير دواء ، الأمر الذى يثير سخط الأطباء ، فيصيح الدكتور بايز « خير لها أن تموت طبقاً للقواعد من أن تشفى مخالفة لها(٣٤) » .

وفى ٦ أغسطس ١٦٦٦ عرض موليير مسرحية قصيرة أخرى هى «الطبيب برغم أنفه » مقدمة مسرحية لمسرحيته « مبغض البشر » قصد بها أن يخفف من كآبة هذه التمثلية التى تتغنى بالتشاؤم . وهى لا تجزى جهد قارئها اليوم لأن موليير لم يقصد أن تؤخذ هجائياته للطب مأخذ الجد . ويلاحظ أنه قال على علاقات طيبة جداً مع طبيبه الخاص ، المسيو دموفلان ، وأنه توسط لدى الملك ليجد وظيفة شرفية لابن هذا الطبيب (١٦٦٩) وقد شرح مرة كيف كان هو وموفلان منسجمين تمام الانسجام فقال « إننا نناقش الأمر ، ويصف هو العقاقير ، وأنا أغفل تعاطيها ، ثم أشفى (٣٥) » .

وبينما كان موليير لا يزال فى وطيس المعركة حول طرطوف ، قدم فى ٤ يونيو ١٦٦٦ هجائية أخرى لم يقصد بها أن يسر الجمهور ولا الحاشية . وإذا كانت الحركة روح المسرحية ، فإن هذه المسرحية « مبغض البشر » أقرب إلى الحوار الفلسفى منها إلى التمثيلية وتكفى جملة واحدة لتلخيص القصة ؛ فألسيست ، الذى يطالب نفسه وغيره بالفضيلة الصارمة والصراحة

الكاملة يحب سيليمين التى تؤثره ، ولكن يطيب لها أن ترى العدد العديد من الخطاب وتسمع الكثير من المديح . ويجد موليير فى هذا مجرد ذريعة لدراسة الفضيلة . فهل من واجبنا أن نقول الصدق دائما ، أم نحل المجاملة محل الصدق لكى نتقدم فى هذه الدنيا ؟ أما السيست فيرفض أنصاف الحلول التى يتراضى بها المجتمع مع الصدق ، ويندد برياء البلاط ، حيث يتظاهر كل إنسان بأسمى العواطف و « أحر التحيات » فى حين يكيد كل لغيره سراً تحقيقاً لمصلحته الشخصية ، ويغتابهم جميعاً ، ويستميت بالتملق على نيل الحظوة أو السلطة . وألسيست يحتقر هذا كله ، ويريد أن يكون صادقاً ولو أفضى به الصدق إلى الانتحار . ويصر شويعر من رجال البلاط يدعى أورونت على قراءة أشعاره على ألسيست ، ويطلب إليه أن ينقدها نقداً مخلصاً ؛ وينال ما طلب ، فيهدد ويتوعد بالانتقام . وتغازل سيليمين الرجال ، فيوبخها ألسيست ، فتصفه بأنه إنسان متزمت مغرور ، ونكاد نسمع موليير يوبخ زوجته المرحة ، والواقع انه هو الذى لعب دور ألسيست ، وهى التى مثلت سيليمين :

ألسيست : سيدتى ، أتسمحين لى أن أكون صريحا معك ؟ إننى لشديد الاستياء من تصرفاتك . . أنا لا أتشاجر معك ، ولكن مسلكك ياسيدتى يفتح لأول وافد أرحب سبيل إلى قلبك . إن لك عددا هائلا من العشاق الذين نراهم يحاصرونك ؛ ونفسى لا تستطيع الرضى بهذا .

سيليمين : أتلومنى لأننى أجذب العشاق ؟ أهو ذنبى أن الناس يجدونى جديرة بالحب ؟ وإذا بذلوا المحاولات اللطيفة لرؤيتى أفآخذ عصا وأطردهم خارجا ؟ .

ألسيست : لا ، ليست العصا هى ما يجب أن تستعمليه ، بل روحا أقل استسلاما وذوبانا أمام عهودهم . أعرف أن جمالك يتبعك فى كل مكان ولكن ترحيبك يزيد من تجتذبه عيناك تعلقا بك ، وتلطفك مع جميع من يستسلمون لك يكمل فى قلوبهم فعل مقاتنك (٣٦) .

والنقيض الفلسفى لألسيست هو صديقه فيلانت ، الذى ينصحه بأن يلائم فى لطف بين نفسه وبين ما فى البشر من نقائض فطرية وأن يعترف باللطف ميسراً للحياة . وسحر المسرحية فى قسمة موليير عواطفه بين السيست وفيلانت . فألسيست هو موليير الزوج الذى يخشى أن يكون ديوثا ، ومنجد حجرة الملك الذى عليه — لكى يعد سرير الملك — أن يتصدى لمائة نبيل يفاخرون بنسبهم مفاخرته بعبقريته . وفيلانت هو موليير الفيلسوف ، الذى يأمر نفسه بأن يكون معقولا متسامحاً فى الحكم على البشر . يقول فيلانت — موليير لموليير — ألسيست فى فقرة لنا أن نعتبرها نموذجا من موليير الشاعر :

« رباه : فلنتقلل من ضيقنا بعادات العصر ، ولنتسامح قليلا مع الطبيعة البشرية ، ولا نفحصها بصرامة شديدة ، بل ننظر إلى عيوبها بشىء من التساهل . فالحياة فى هذه الدنيا تتطلب فضيلة مرنة طيعة ، وقد يخطىء المرء بغلوه فى الحكمة ، فالعقل الكامل يتجنب كل تطرف ، ويريدنا أن نكون حكماء فى اعتدال . إن التزمت الشديد فى فضائل القدماء يصدم كثيراً عصرنا والعرف السائد بيننا ؛ فهو ينشد فى البشر كمالا مفرطاً ؛ علينا أن نلين للزمن دون تصلب ؛ والحماقة كل الحماقة فى أن نورط أنفسنا فى تقويم أخطاء العالم . إن الحظ كما تلحظ كل يوم عشرات الأشياء التى كان يمكن أن تكون خيراً مما هى لو أنها سلكت طريقاً غير طريقها ، ولكن مهما تكشف لى فى كل خطوة ، فإن الناس لا يرونني ساخطا مثلك . أننى أتقبل الناس على علاتهم فى هدوء كثير ، وأروض نفسى على التجاوز عما يفعلون ، وأعتقد أن فى برودة طبعى من الفلسفة قدر ما فى مرارة طبعك ، سواء كنت فى البلاط أو فى المدينة »(٣٧).

وفى رأى نابليون أن حجة فيلانت هى الأرجح ، أما جان جاك روسو فرأيه أن فيلانت كذاب ، وهو يحبذ فضيلة السيست الصارمة(٣٨) . وفى النهاية يهجر السيست العالم كما هجره جان جاك ويعتكف فى عزلة معقمة .

ولم تحقق التمثيلية من النجاح إلا قدراً معتدلا . فالحاشية لم تسغ هجو تظرفها ، وجمهور الصالة لم يتحمسوا لرجل كألسيست يحتقر كل شيء صراحة إلا نفسه . ولكن النقاد — الذين لاهم من جمهور الصالة ولا من الحاشية — صفقوا للمسرحية استحسانا ، وقالوا إنها محاولة جريئة لتأليف مسرحيه الأفكار ، أما النقاد المحدثون فيرونها أكمل عمل كتبه موليير . وبمضى الزمن ، وبعد أن مات جيلها الذى شهرت به ، لقيت قبولا عاماً ، ففيما بين عام ١٦٨٠ و ١٩٥٤ مثلت ١٥٧١ مرة فى الكوميدى فرانسيز — ولم يفقها فى حفلات تمثيلها سوى طرطوف والبخيل .

ولما عجز موليير عن المعيش فى سلام مع زوجة شابة بدا لها الاقتصار على زوج واحد ، والجمال ، أمرين متناقضين ، هجرها (أغسطس ١٦٦٧) وذهب ليعيش مع صديقه شابلان فى أوتوى بالطرف الغربى لباريس . وقد استخف به شابلان فى رفق لأنه يأخذ الحب مأخذ الجد إلى هذا الحد ، ولكن موليير كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . وقد اعترف بهذا (إذا صدقنا شاعراً يروى عن آخر) :

« لقد صممت على أن أعيش معها كأنها ليست زوجتى ، ولكن لو علمت ما أكابد لأشفقت على . فلقد بلغ بى الغرام بها مبلغاً يجعله يتغلغل بعطف فى كل اهتماماتها . وحين أتأمل استحالة تغلبى على ما أحس به نحوها ، أقول لنفسى إنها ربما تكابد نفس المشقة فى التغلب على ميلها لأن تكون لعوبا ، وعندها أجد نفسى أميل للشفقة عليها منى للومها . ستقول لى ولا ريب إن الرجل لابد أن يكون شاعراً لكى يحس بهذا ، ولكنى شخصيا أحس أنه ليس هناك سوى نوع واحد من الحب ، وأن أولئك الذين لم يحسوا بهذه الخلجات لم يحبوا حبا صادقا قط . فكل الأشياء فى الدنيا مرتبطة بها فى قلبى . . . وحين أراها يجردنى من كل قدرة على التفكير ضرب من الانفعال ، بل نشوات تحس ولا توصف ، فلا تعود لى عينان

تبصران سوءاتها ، ولا أرى غير كل جميل محبب فيها . أليس هذا منتهى الجنون(٣٩) ؟ »

وقد حاول أن يسلوها باغراق نفسه فى عمله . ففى ١٦٦٧ شغل نفسه بتنظيم حفلات الترفيـــه للملك فى سان — جرمان . وأحيت ملهاته « امفيتريون » (١٣ يناير ١٦٦٨) من جديد غراميات جوبيتر الذى يغوى الكين زوجة أمفيتريون . وحين قال لها جوبيتر « إن مقاسمة المرأة جوبيتر فراشه ليس فيها أى غض من شرفها » فسر كثير من السامعين العبارة بأنها تصفح عن غرام الملك بمدام دمونتسبان ، فإذا كان هذا التفسير صحيحا فهو تملق غاية فى السخاء ، لأن موليير لم يـكن مزاجه آنذاك يسمح له بالتعاطف مع من يغوون الزوجات . لقد كان ككل إنسان آخر يداهن الملك بعبارات الزلفى كما فعل فى خاتمة طرطوف . وفى ملهاة أخرى مثلت أمام البلاط فى ١٥ يوليو ، واسمها « جورج داندان ، أو الزوج المبلبل » تطالعنا مرة اخرى قصة الزوج المبلبل ، الذى يتهم زوجته بالزنا ولـكنه لا يستطيع أثبات التهمة فيأكل قلبه بالشك والغيرة ؛ لقد كان موليير يسكب الملح فى جراحه .

وكان عاما حافلا بالعمل ، فبعد بضعة أشهر لا أكثر (٩ سبتمبر) أخرج واحدة من أشهر تمثيلياته وهى « البخيل » . وقد اتخذت موضوعها وجزءاً من حبـكتها من مسرحية بلوتوس « أولولاريا » ولـكن بلوتوس كان قد نقل مسرحيته عن « الملهاة الجديدة » عند اليونان . وأغلب الظن أن البخيل وهجوه قديمان قدم المال ، ولـكن أحداً لم يتناول هذا الموضوع بحيوية وقوة أكثر من موليير . فترى آرباجون يتعلق بماله تعلقاً يحمله على ترك خيله تتضور جوعاً وتسير بغير حوافر ، وهو يـكره العطاء كراهية تجعله لا « يعطيك » نهاراً سعيداً (أى يقرئك التحية) بل « يقرضك نهاراً سعيداً » . وحين يرى شمعتين موقدتين استعداداً للعشاء يطفىء أحداهما .

وهو يرفض أن يمنح ابنته مهراً ، ويثق أن ابنه وابنته سيموتان قبله[٤٠]. والمهجوهنا ، كما هو فى موليير عادة ، يقرب من الكاريكاتور . ولم يسغ الجمهور الصورة ، وبعد أن مثلت المسرحية ثمانى مرات سحبت ، ولكن ثناء بوالو عليها أعان على نفخ الحياة فيها ، فعرضت سبعاً وأربعين مرة فى سنواتها الأربع الأولى ، ولا يفوقها فى عدد عروضها غير طرطوف .

أما مسرحية « البورجوازى مدعى النبل » فكانت أقل جودة وأكثر توفيقاً . وقصتها أنه فى ديسمبر ١٦٦٩ قدم إلى فرنسا سفير تركى . واتخذ البلاط كل أبهته ليقع من نفس السفير ، ولكن السفير استجاب فى جمود وصلف . وبعد رحيله دعا لويس موليير ولولى إلى تأليف كوميديا تجمع بين الباليه والملهاة وتحاكى الأتراك محاكاة ساخرة . ووسع موليير الخطة فجعلها هجائية تذم العدد المتعاظم من فرنسيى الطبقة الوسطى الذين يجاهدون للبس والحديث كما يلبس ويتحدث الأرستقراطيون بالمولد . ومثلت الملهاة أول مرة أمام الملك والبلاط بشامبور فى ١٤ أكتوبر ١٦٧٠ . ولما عرضت بالباليه — رويال فى نوفمبر ، عوضت الخسارة المالية التى ألحقها بالفرقة عروض « البخيل » . ومثل موليير دور مسيو جوردان ، ومثل لولى دور المفتى . ورغبة فى خلع النبالة على مظهره ، يستأجر مسيو جوردان معلما للموسيقى ، وآخر للرقص ، وثالثاً للمبارزة . ورابعاً للفلسفة . ويتمارك هؤلاء ويتضاربون على أهمية فنونهم — فأيها أهم ، تحقيق التناغم ، أم الخطو الموقع ، أم القدرة على القتل المحكم ، أم الحديث بالفرنسية الرشيقة ؟ ونلحظ فى مزاعم معلم الموسيقى غمزة خبيثة قصد بها لولى المتفاخر المتسلق . ويعرف نصف العالم ذلك المشهد الذى يتعلم فيه جوردان أن اللغة كلها إما نثر وإما شعر :

مسيو جوردان : ماذا ؟ إذا قلت « إيتنى بخفى يا نيكول » ، و « ناولنى طاقيتى » أيكون هذا نثراً ؟ .

معلم الفلسفة : نعم يا سيدى .

مسيو جوردان : يقيناً ، لقد ظللت أربعين سنة أتكلم النثر وأنا لا أدرى . إنني والحق مدين لك جداً بإنبائى بهذا(٤١) .

على أن بعض رجال الحاشية الذين كانوا غير بعيدى العهد بالتخرج من التجارة إلى النبالة أحسوا أنهم المقصودون بهذا الهجاء ، فسخروا بالتمثيلية زاعمين أنها لغو فارغ ، ولكن الملك قال لموليير مؤكدا « أنك لم تكتب فى حياتك شيئاً أمتعنى كهذا » . يقول جيزو « إن البلاط تملكته نوبة من الأعجاب بمجرد سماعه هذا الثناء(٤٢) » .

وتعاون موليير ولولى ثانيـــة ومثلا أمام البلاط (يناير ١٦٧١) « بسيشيه » ، وهى مزيج من الباليه والمأساة ، شارك بيير كورنى وكنو بأكثر أبياتها . وكان لولى يكسب المعركة ضد موليير ، فالملهاة تخلى مكانها للأوبرا ، والحوار للآلات ، وكان لزاماً إنزال الأرباب والربات من السماء أو رفعهم من الجحيم واقتضى الأمر أعادة بناء المسرح فى الباليه ـ رويال لهذه التمثيلية ، وكلف هذا ٩٨٩ر١ جنيهاً . ولكن الأخراج حقق نجاحاً مالياً .

بيد أن الرومانس لم تكن أقوى جوانب موليير ، وكان أكثر اطلاقاً ويسراً حين يهزأ بسخافات جيله . وقد خيل إليه أن المرأة المتعلمة شذوذ متعب وعقبة فى طريق الزواج . ولقد سمع هؤلاء النسوة يشذبن الألفاظ ، ويناقشن دقائق النحو ، ويقتبسن من الآداب القديمة ، ويتكلمن فى الفلسفة ، ووقر هذا فى إذن موليير كأنه انحراف جنسى ، أضف إلى ذلك أن رجلين ـ هما الأب كوتان والشاعر ميناج — كانا يهاجمان بعنف مسرحيات موليير ، فها هى ذى الفرصه قد لاحت لوخزهما . وعليه ففى ١١ مارس ١٦٧٢ قدم مسرحية « النساء العالمات » . ففيلامنت تطرد خادمة لا ستعمالها لفظا رفضه المجمع اللغوى ، وابنتها أرماند ترفض الزواج لأنه اتصال مقزز بين الأجساد لا امتزاج بين العقول ، ويقرأ تريسوتان شعره الكريه على هاتين

للمرأتين المتكلفتين المعجبتين . ويملأ فاديوس الشعر بالألغاز والمعميات ، ويقرأ المزيد من شعره وشعر تريسوتان . ويدافع موليير عن هنريت ضد هؤلاء جميعاً ، لأنها تستهجن أبيات الشعر (السداسية) وتريد زوجاً يمنحها الأبناء لا الإبجرامات . ترى هل أصبحت أرماند بيجار إحدى المتحذلقات ؟ أم أن موليير كان يعرض عصره ؟

٧ — ستار

إنه لم يجاوز الخمسين الآن ، ولكن حياته المحمومة ، وتدرنه ، وزواجه ، وأحزانه لفقد أحبائه ، استنزفت حيويته . إن مينارر سمه في ريعان شبابه : أنف كبير وشفتان شهوانيتان وحاجبان مرفوعان بشكل مضحك ، ولكن له إلى جانب هذا جبهة متجعدة وعينين حزينتين . ذلك أنهما كه في دوامة المسرح من بلد إلى بلد ، يوماً بعد يوم ، وتعامله مع الممثلات الأوليات المتوترات الأعصاب ، ومع زوجة منعمة بالحياة ، ومع ملك حساس ، ورؤيته اثنين من أطفاله الثلاثة يموتان — كل هذا لم يكن طريقاً مفروشاً بالرياحين إلى التفاؤل ، بل طريقاً عريضاً لسوء الهضم والموت المبكر . لا عجب إذن أن يصبح موليير « بركانا يلتهم ذاته[٤٣] » ، إنسانا مكتئبا ، حاد الطبع ، نقاداً في غير مجاملة ، ولكنه رغم ذلك كريم النفس عطوف . وقد فهمته فرقته وأخلصت له الود ، موقنة أنه يفني نفسه ليوفر لها القوت ويكفل لها النجاح . وكان أصدقاؤه على استعداد دائم لخوض المعركة دفاعا عنه — لا سيما بوالو ، ولافونتين ، اللذين كتبا مع موليير ، بمشاركة راسين أحيانا ، « الأصدقاء الأربعة » المشهورة . ولقد وجدوا فيه التعليم الحسن والاطلاع الواسع ، وعرفوه ذكيا ظريفا وإن قل مرحه ؛ لقد كان المهرج الساخر على خشبة المسرح ، ولكنه في حياته الخاصة أشد حزنا من جاك (في مسرحية شكسبير « كما تشاء ») .

ويعد أن انفصل عن زوجته أربع سنوات ونصفاً عاد إليها (١٦٧١) . ومات الطفل الذى أثمره هذا التصالح بعد شهر من ولادته . وكان يعيش فى أوتوى قبل ذلك على اللبن كما أوصاه طبيبه ، فعاد الآن إلى شرب النبيذ على عادته ، وحضر سهرات العشاء المتأخر ارضاء لأرماند . وقرر أن يمثل الدور الأول برغم تفاقم سعاله ، دور أرجان ، فى آخر تمثيلياته « المريض بالوهم » (١٠ فبراير ١٦٧٣) .

وأرجان هذا يتوهم أنه مصاب بالعديد من الأمراض ، وينفق نصف ثروته على الأطباء والعقاقير . ويحتقره أخوه بيرالد :

« أرجان : فما الذى يجب أن نصنعه حين نمرض ؟

بيرالد : لاشىء يا أخى . . . علينا أن نحتفظ بهدوئنا لا أكثر . والطبيعة ذاتها إذا تركناها وشأنها ، كفيلة بأن تخلص نفسها بلطف من الخلل الذى وقعت فيه . إن الذى يفسد كل شىء هو تكرارنا لصنيعها وتفاد صبرنا ، وكل الناس تقريبا يموتون بالدواء لا بالداء(٤٤) » .

ولمزيد من السخرية بمهنة الطب يقال لأرجان إن فى استطاعته هو نفسه أن يصبح طبيبا بإجراء مختصر ، وأن يجتاز بسهولة الامتحان للحصول على الأجازة الطبية . ويلى ذلك الامتحان المزيف الذى تسأل فيه اللجنة أرجان(*) .

وكاد موت موليير أن يكون جزءا من هذه التمثيلية . ففى ١٧ فبراير

(*) يحاول بيرالد فى هذا الفصل الأخير من الملهاة أن يسلى الأسرة ، فيكلف أصحابه الممثلين بفاصل يمثل قبول أرجان طبيبا فى الفيزياء على أنغام الموسيقى والرقص ، ويقترح اشتراك الجميع فى المهزلة ، وأن يمثل أرجان الدور الرئيسى فيها . ويدخل موكب الصيادلة والجراحين والأطباء ، ويجلس أرجان عند قدمى الرئيس الذى يخاطب لجنة الامتحان بخليط لغوى هازل طالبا إليهم أن يوجهوا اسئلتهم لأرجان . فيسألونه عن العقاقير والأمراض وعلاجها ، وعقب كل جواب يبدى الخورس استحسانه وجدارة أرجان بالمهنة ، فيحلفه الرئيس ويجيزه ، ويهتف الخورس بحياته داعيا له بطول العمر . (المترجم)

١٦٧٣ طلبت إليه أرماند وغيرها ، حين رأوا اعياءه ، أن يغلق للسرح أياما حتى يتمالك صحته . فسألهم ، ولكن كيف أصنع هذا ؟ إن هنا خمسين عاملا فقيرا ينقدون أجرهم يوما بيوم ، فماذا هم فاعلون إذا توقفنا عن التمثيل ؟ انني لألوم نفسى على انني أهملت توفير القوت لهم يوما واحدا مادام فى طاقتى أن أمثل(٤٥) » . وفى الفصل الأخير من التمثيلية ، وبينما كان موليير ، فى دور أرجان (الذى تظاهر بالموت مرتين) يلفظ بكلمة Juro (أحلف) وهو يقسم يمين المهنة ، أخذته نوبة سعال مقترنة بتقلصات . فداراها بضحكة كاذبة وأنهى التمثيلية . وهرعت به زوجته والممثل الشاب ميشيل بارون إلى بيته . وطلب كاهنا ، ولكن أحدا لم يحضر . واشتد سعاله ، وانفجر فيه عرق ، فاختنق بالدم فى حلقه ومات .

وقضى آرلى دشانفالون رئيس أساقفة باريس بأنه يستحيل دفن موليير فى أرض مسيحية مادام لم يتب توبته النهائية ويتلقى غفران الكنيسة . أما أرماند ، التى كانت تحبه على الدوام حتى وهى تخدعه ، فذهبت إلى فرساى ، وارتمت عند قدمى الملك ، وقالت فى غير حكمة ، ولكن فى شجاعة وصدق « إذا كان زوجى مجرما ، فان جلالتكم باركتم جرائمه بشخصكم(٤٦) » . وبعث لويس بكلمة إلى رئيس الأساقفة سراً ، ولان آرلى ، وأمر بألا يؤخذ جثمانه إلى كنيسة لإجراء الشعائر المسيحية ، ولكنه سمح بدفنه فى هدوء بعد الغروب فى ركن قصى من جبانة سان — جوزيف فى شارع مونمارتر .

ومازال موليير بإجماع الناس علما من أعظم أعلام الأدب الفرنسى ، لا بكمال تكنيكه المسرحى ولا بأى روعة تميز بها شعره . فأكثر حبكاته مستعارة ، ومعظم نهاياتها مفتعلة وغير معقولة ، وجل شخوصه صفات مجسدة ، والعديد منها كأرباجون مبالغ فيه إلى حد الكاريكاتور ، وكثيرا ما تهبط ملاهيه إلى درك الفارص (الهزلية الصاخبة للمهرجة) .

وقد قيل إن الحاشية والجمهور أحبوه أكثر ما أحبوه حين يغرق فى هذا الفارص ، ولم يستطيبوا أهاجيه اللاذعة للمثالب التى يشارك فيها الناس عموما . وأغلب الظن أنه كان مفضلا هذا اللون من الهزلية لولا شعوره بأنه مضطر إلى الحفاظ على قدرة فرقته على الوفاء بديونها .

وكما أسف شيكسبير على اضطراره أن يجعل من نفسه مهرجا للناظرين كتب موليير يقول : « أرى أن من العقوبة الفادحة فى الفنون الحرة أن يعلن الفنان عن نفسه للحمق وأن نعرض ثمرات أقلامنا للحكم الهمجى الذى يحكم به عليها الأغبياء(٤٧) » . وقد حز فى نفسه أن يطالب على الدوام بإضحاك الناس ، فهذا كما قال أحد شخوصه « مطلب غريب(٤٨) » . وكان يتطلع لكتابة المآسى ، ومع أنه قصر دون هذا الهدف ، فإنه وفق فى أن يضفى على أعظم ملاهيه مغزى وعمقا مأساويين .

إذن فالفلسفة التى تنطوى عليها تمثيلياته ، وفكاهتها وهجوها اللاذع — هذه هى التى تجعل كل قارىء فرنسى تقريبا يقرأ موليير(٤٩) . وهى فى صميمها فلسفة عقلانية ، أبهجت قلوب « فلاسفة » القرن الثامن عشر . « فليس فى موليير أثر لمسيحية الحوارق » و « الدين الذى عرضه لسان حاله كليانت (فى طرطوف) يمكن أن يصدق عليه فولتير(٥٠) » . إنه لم يهاجم قط العقيدة المسيحية ، وقد سلم بفضل الدين فى حياة الكثيرين جداً ، واحترم التقوى الصادقة المخلصة ، ولكنه احتقر الورع السطحى الذى يخفى أنانية أيام ستة وراء نفاق اليوم السابع (يوم الأحد) .

وكانت فلسفته الأخلاقيه وثنية بمعني أنها أباحت اللذة ولم يكن فيها إحساس بالخطيئة . كان فيها رائحة أبيقور وسنيكا لا القديس بولس أو أوغسطين ، وقد انسجمت مع تحلل الملك أكثر من انسجامها مع زهد البور — رويال . وكان يستنكر الغلو حتى فى الفضيلة . كان يعجب بـ « الرجل الفاضل » ، رجل الدنيا المعقول الذى يسلك باعتدال عاقل

وسط السخافات المتعارضة ، ويوائم فى غير ضجة بين نفسه وبين نقائص البشر .

ولم يبلغ موليير ذاته ذلك المستوى من الاعتدال . فقد أكرهته مهنته مسرحيا هازلا على الهجو ، وعلى المبالغة أحيانا كثيرة . وقد عنف على النساء المتعلمات ، وغلا فى هجومه على الأطباء دون تفريق ، ولعله كان يخلق به أن يبدى احتراما أكثر للحقن الشرجية . ولكن الغلو كائن فى دم الهجو ، وقل أن تبلغ المسرحيات هدفها بدونه ، ولعل موليير يكون أجل وأعظم قدرا لو أنه وجد سبيلا لهجو الشر الأساسى الذى لوث ذلك العهد — ونعنى ذلك الجشع الحربى والاستبداد المدمر الذى ابتلى به لويس الرابع عشر ؛ ولكن هذا المستبد المنعم هو الذى حماه من أعدائه ويسر له أن يشن الحرب على التعصب . وما أسعده لأنه مات قبل أن يصبح سيده أشد هؤلاء المتعصبين كلهم تدميرا !

إن فرنسا تحب موليير ، وما زالت تمثل مسرحياته ، كما تحب انجلترا شيكسبير وتمثل مسرحياته ، ولا نستطيع كما يريد بعض الغاليين (الفرنسيين) المتحمسين أن نسوى بينه وبين شاعر انجلترة ، فلقد كان جزءا فقط من شيكسبير ، الذى كان جزءاه الآخران راسين ومونتينى . كذلك لا نستطيع كما يفعل الكثيرون أن نضعه على قمة الأدب الفرنسى . لا بل إننا لسنا على يقين من أن بوالو كان على حق حين قال للويس الرابع عشر إن موليير كان أعظم شعراء عهده ، فحين قال بوالو هذا لم يكن راسين قد كتب « فيدر » ولا « آتالى » . ولكن فى موليير ، ليس الكاتب فقط هو الذى ينتمى لتاريخ فرنسا ، بل الإنسان : مدير الفرقة المرهق الوفى ، والزوج المخدوع الصفوح ، والمسرحى الذى يخفى أحزانه بالضحك ، والممثل العليل الذى يواصل حتى الموت حربه على الفقر ، والتعصب ، والخرافة ، والنفاق .